إثراء المعارف الرقمية

بريد الجمعة

بريد الجمعة

الجمعة ٢ يوليو ١٩٩٩

يكتبه: عبد الوهاب مطاوع

الأسئلة الصامتة؟

أنا شاب على أبواب الأربعين من عمري نشأت في أسرة طيبة بين أب كريم يرحمه الله وأم فاضلة أطال الله عمرها وعدد من الإخوة والأخوات، وقد رحل أبي عن الحياة وأنا في السادسة عشرة من عمري وحصلت على شهادتي العليا، وأنهيت خدمتي العسكرية وسافرت للعمل بإحدى الدول العربية، وخلال عملي بها أعلنت خطبتي لابنة خالتي وهي فتاة كريمة الأخلاق وعقدت قراني عليها وبعد ٣ شهور تم الزفاف، وقضيت مع عروسي في مصر شهرين ثم سافرت الى مقر عملي، وبعد ٨ شهور أخرى رجعت اليها وقضيت معها ٧٥ يوما، وبعد شهور أخرى لحقت هي بي في مقر عملي وسعدت بها ومضت الأيام بنا هادئة، غير انني لم ألمس بشائر الحمل بعد كل هذه الفترة، فتوجهت الى أحد المعامل لإجراء تحليل للخصوبة، وقرأت النتيجة في وجه طبيب المعمل قبل ان يصارحني بها وتقبلتها هادئا، ثم أعدت إجراء التحليل في معمل آخر.. ثم ثالث وجاءت النتيجة مماثلة.. وإلى هذه اللحظة لم أكن قد أخبرت أحدا على ظهر الأرض إنه لا أمل لي البتة في الإنجاب لانعدام الحيوانات المنوية لدى نهائيا، ولم أكن أيضا قد فقدت هدوئي وتماسكي، لكن نتيجة التحليل الثالث كانت قد قضت على آخر أمل تعلقت به.. فشعرت بحزن شديد أثقلني حتى عن رؤية صاحب العمل حين صادفني عند عودتي للعمل..

وبعد قليل من رجوعي للعمل سألني مديري عن سبب تجاهلي لصاحب العمل حين التقيت به منذ قليل.. فأجبته صادقا بأنني لم ألتق به، فقال لي بل التقيت به واستغرب عدم مصافحتك له.. فوجدتني أبوح له بما أهمني وشغل خاطري.. وبعد قليل طلبني صاحب العمل في مكتبه وأسمعني من الكلام الطيب ما خفف عني بعض أحزاني وطلب مني التمسك بالصبر والأمل في رحمة الله رب العالمين..

وجاء الى المدينة بعد شهور جراح مصري كبير فعرضت نفسي عليه، واستقر الرأي على إجراء فحص جراحي وأخذ عينة لتحليلها ووافقت على ذلك بشرط عودتي لبيتي في نفس اليوم لكيلا تشعر زوجتي بالقلق، وتم إجراء الجراحة وانتظرت نتائج تحليل العينة لمدة أسبوعين وقلبي يخفق بالأمل والخوف، وحين توجهت إلى الطبيب الجراح لمعرفة النتيجة تكرر لي ما حدث في أول تحليل وقرأت النتيجة في وجه الطبيب قبل أن يصارحني بها، ولم أقل له سوى إنه سبحانه وتعالى قد قدر لي هذا وما شاء فعل ووجدت عبارة لأحد الصوفية الكبار تتردد بقوة في أعماقي هي: ربما منع فأعطى، وربما أعطى فمنع!..

ورجعت الى البيت هادئا فكان أول ما فعلته هو أن جلست مع زوجتي وشرحت لها كل شئ بصراحة تامة، وطلبت منها أن تفكر جيدا في أمرها، فأسمعتني، أكرمها الله، من الكلمات الحانية ما أثلج صدري وخفف عني بعض الألم، وصارحت شقيقي الأكبر الذي يعمل معي في نفس المدينة بأمري، ووجدتني بعد قليل أخفف عنه آله وهمه وألوم نفسي أني أثقلت عليه، بما صارحته به.

ومضت حياتي مع زوجتي في سلام الى ان رجعنا لمصر بعد عامين ووجدتني محاصرا بالأسئلة الصامتة في عيون الأهل والأخوة والأخوات والأصهار عن سبب عدم حمل زوجتي وإنجابها حتى الآن، ولم أستطع بالطبع مصارحة أحد من أهلي بالحقيقة ليس خجلا منها وإنما إشفاقا من وقعها عليهم بعد أن جربت ذلك من قبل مع شقيقي الأكبر، ورجعنا بعد انتهاء الإجازة الى مقر عملنا.. وأمضينا عامين آخرين، ثم رجعنا الى بلدنا مرة أخرى في اجازة وكان قد مضى على زواجنا حوالي سبع سنوات دون إنجاب فوجدتني في وضع لا أحسد عليه.. ووجدت التساؤلات التي كانت صامتة في الزيارة السابقة قد أصبحت صريحة، ووجدتني ملزما بأن أشرح لكل فرد من الأهل والأصهار ما حدث بالضبط.. وما فعلت.. وما قاله الأطباء، وكيف كانت نتائج التحاليل الأولية.. والنهائية إلخ.. وهو حديث ثقيل على النفس ومؤلم لصاحبه وحدث ما كنت أخشاه من ردود الأفعال التي تباينت بين الحزن والتعاطف.. والشماتة من البعض لا أدري لماذا.. غير أن هذه الردود لم تترك والحمد لله أي أثر على علاقة زوجتي بي.. وإن كانت قد شرخت علاقتي أنا بالأهل كلهم للأسف الشديد ورجعت الى غربتي وفي النفس مرارة وفي الحلق غصة.

فإذا سألتني ما هي المشكلة الآن.. أجبتك انها تتمثل في انني قد أصبحت انسانا آخر مع كل من اضطرني عن قصد أو سوء نية أن أعلن على الملأ شيئا شديد الخصوصية بالنسبة لي، وهو عدم قدرتي على الإنجاب لأسباب لا حيلة لي فيها، وذلك بإلحاحه على السؤال أو بإحراجي بالتساؤلات التي لا مفر من تقديم الإجابات عنها، وأتمنى أن أرجع كما كنت مع الجميع لكنني لا أملك ذلك للأسف حتى الآن، ولهذا فقد كتبت لك هذه الرسالة لكي أرجو من كل الأهل - أهلي وأهل الجميع - أن يرحموا كل زوجين يريدان أن يحتفظا لنفسيهما بما يخصهما من أسرار لا ينعكس أثرها سوى عليهما وحدهما، وأن يترفقوا بهما في السؤال سواء بأسئلة العيون أو بالأسئلة الصريحة، لأن السؤال غير اللائق أو الجارح لا ينمحي أثره أبدا من نفس من يوجه اليه، على عكس ما يتصورون وفي النهاية فإني أطمئنك أنني وزوجتي على أحسن حال، ونرعى الله في عشرتنا معا وقد أصبح بيتنا واحة للمحبة وراحة البال والاحترام، وأكرمنا الله بالحج والعمرة عدة مرات، وشكرا لك أن أتحت لي هذه الفرصة لإخراج هذا البخار المكتوم من صدري.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

من أشق الأمور على الإنسان المهموم بأمره أن يجد نفسه مضطرا إلى التصريح بما يتحرج أن يعرفه عنه الآخرون، أو ربما كان يرجو أن يعفوه من الحديث عنه أو الإشارة اليه، تلطفا منهم وإدراكا لحساسية الأمر وخصوصيته بالنسبة له.

ولكن ماذا نفعل يا صديقي مع من قد يدفعهم حرصهم علينا أو حبهم لنا في بعض الأحيان إلى عدم الاكتفاء بملاحظة الحال بغير سؤال، والإلحاح علينا بالتساؤلات الصامتة أو الصريحة عما لاتكون إجابته إلا كشف أستارنا والحديث عما لايسعدنا البوح به؟

وماذا نفعل مع غيرهم من البشر الذين لايدركون أين تقع أسئلتهم المؤلمة من القلوب الحزينة؟!

لقد قال بعض الحكماء ان من أدب السؤال، الا يسأل المرء صاحبه عما يعلم أنه يتحرج من التصريح به، أو تؤلمه مجرد الإشارة اليه، وان من لايلتزم بمثل هذا الأدب في التعامل مع الآخرين انما يضطرهم لمكابدة عناء الكذب لاخفاء مالا يفضلون ان يكون موضوعا للنقاش مع الغير، أو يضطرهم لمكابدة عناء البوح بما يريدون ان يطلع عليه غيرهم.

ولهذا فلقد نهانا الله سبحانه وتعالى عن الفضول الذي يقتحم خصوصيات الآخرين ويهتك أستارهم، وعن كثرة السؤال التي تفتح الأبواب لنكأ الجراح . وإيلام المشاعر، وإثارة المتاعب .

ولقد نزلت الآية الكريمة ١٠١ من سورة المائدة التي تقول : «يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم»

فيمن كانوا يلحفون بالسؤال على رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء لم يتنزل فيها أمر ونهي، أو يلحون في طلب تفصيل أمور أجملها القرآن وجعل في اجمالها سعة للناس، أو بالاستفسار عن أشياء لاضرورة لكشفها لأن كشفها قد يؤذي السائل أو غيره من البشر، غير أن المفسرين يجعلون منها منهاجا أخلاقيا للتعامل بين البشر في أمور الحياة الأخرى، ويرون في هذا المنهج درءا لشرور الفضول والتطفل على خصوصيات الآخرين وأسرارهم

والمثل الإنجليزي القديم: لاتسألني فأكذبك.

أي لاتسألني عما لاأحب البوح به لك أو لغيرك فتضطرني للكذب!.

وليس السؤال المحرج هو وحده السؤال الذي ينطق به اللسان، لأن من أسئلة العيون الصامتة أيضا مالايقل احراجا للمسئول عن السؤال الناطق، لهذا فقد كان من حسن الكياسة دائما ان يكبح المرء لسانه عما لايجوز له السؤال عنه.. وعينه أيضا عما لايجوز لها الإلماح اليه.

والأمر معقود في النهاية لحسن الادراك والفهم اللذين ينبغي أن يتوافرا لدى المحيطين بالمرء من أهله وأصدقائه!

إذ ماذا يعني سؤال زوجين مضى على زواجهما سبع سنوات دون حمل ولا انجاب عن «أسباب» عدم انجابهما سوى ايلام المسئول .. ونكأ جراحه ووضعه في موضع المطالب بتقديم تفسير لما لاحيلة له فيه ولاجريرة؟ وماذا يغير مثل هذا السؤال الجارح من واقع الحال؟

وأي عائد جدي له سوى جرح مشاعر المقصود به وتذكيره بحرمانه الذي لاحيلة له فيه ولم يختره لنفسه بارادته؟

انني معك يا صديقي تماما في أن من واجب الجميع عدم الإلحاح بالسؤال على أي زوجين يرغبان في أن يحتفظا لنفسيهما بمساحة من الخصوصية لايجوز حتى لأقرب الناس اليهما اقتحامها، أو التطفل عليهما ومعك أيضا في أن من جراحات اللسان مالا التئام له في بعض الأحيان على عكس جراحات «السنان» أي السيوف على حد تعبير الشاعر العربي، لكني أدعوك من ناحية أخرى الى التخفف من بعض حساسيتك الزائدة تجاه هذا الأمر، لأن مالا حيلة للمرء معه لاذنب له عنه.. ولاعيب فيه.

ومادمت تحيا حياتك في وئام ووفاق مع زوجتك ويرعى كل منكما الله سبحانه وتعالى في عشرته للآخر.. فلتتجاوز عن مثل هذا الفضول الذي كدر صفوك في بعض الأوقات، ولتلتمس لأصحابه بعض العذر فيه باهتمامهم بأمرك وحبهم لك وحرصهم عليك.. حتى وان أساء مثل هذا الاهتمام التعبير عن نفسه بالإلحاح عليك بالتساؤلات المحرجة.. فمثل هذا الفضول لن يستمر ولن يتواصل، ولسوف يعرف أصحابه الآن أنه لاعائد له سوى تكدير القلوب المحزونة فيتعلمون درس التجربة.. ويتجنبون العودة اليه مرة أخرى.

ولقد أشرت الى الكلمة الحكيمة التي ترددت في أعماقك بقوة حين علمت بنتيجة الفحص الجراحي : ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك، وهي من الحكم المعروفة، لابن عطاء الله السكندري «تاج الدين» وترجمان العارفين، الجذامي نسبا، المالكي مذهبا، السكندري دارا، القاهري مزارا، الصوفي حقيقة، الشاذلي طريقة، أعجوبة زمانه ونخبة عصره وأوانه المتوفى سنة تسع وسبعمائة هجرية كما وصفه، ابن عجيبة، وقد قال النفري الرندي: في شرحه لهذه الحكمة التي تحمل رقم ٨٣ في سلسلة الحكم العطائية، ربما أعطاك الله سبحانه وتعالى ماتميل اليه نفسك فمنعك التوفيق والطاعة والإقبال عليه، وربما منعك منه أو من بعضه فأعطاك التوفيق والرضا والقبول، وهكذا فقد يكون المنع في حقيقته عطاء والعطاء في جوهره منعا

.. فاسعد بحياتك الهانئة وزوجتك الفاضلة الوفية، واشكر للخالق الكريم عطاءه.. وتجاوز عمن أساء اليك بغير قصد والسلام.